﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنفال: 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من المكرِ بالرَّسولِ إلى المكرِ بالرِّسالةِ

لمّا ذكرَ ﷻ مكرَ الكفّارِ في ذاتِ النَّبيِّ ﷺ فقالَ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾؛ ذكرَ في قولِهِ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا﴾ مكرَهم أيضًا بما أرسلَ بهِ، وهو القرآنُ، فتصدَّوا للطَّعنِ بهِ، والتَّشغيبِ عليهِ، وهذا غايةُ المكابرةِ والتَّعنُّتِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُتْلَىٰ﴾: التّاءُ واللّام والواوُ: أصلٌ واحدٌ، وهو الاتِّباعُ، واتِّباعُ الشَّيءِ: ما يسبقُهُ لحوقًا بهِ من خلفِه، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾ [الشمس: 2]: تبعها، والتِّلاوةُ: القراءةُ، ولعلَّ أصلَهُ من تتبُّعِ الكلامِ المكتوبِ عند القراءةِ، أي: اتِّباعه كلمةً كلمةً، أو من التَّلاحقِ: تلاحقِ المتلوِّ، أي: (هذا يتبع هذا)، ثم أطلقتِ التِّلاوةُ على تلاوةِ القرآنِ؛ لما فيهِ من تتابعِ الآياتِ بشكلٍ منتظمٍ، والتِّلاوةُ: القراءةُ من مكتوبٍ، ثم عُمِّم في القراءةِ عن ظهرِ قلبٍ، أي: من غيرِ المكتوبِ[2].

والمقصودُ هنا: هو تلاوةُ آياتِ القرآنِ الكريمِ.

2) ﴿أَسَٰطِيرُ﴾: جمعُ أسطورةٍ، من سطرَ: السّينُ والطّاءُ والرّاءُ: فيها دلالةٌ على اصطفافِ الشَّيءِ، كالكتابِ والشَّجرِ، وكلُّ شيءٍ اصطفَّ بانضباطٍ، والسَّطرُ: الخطُّ والكتابةُ، وقوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 7/398، والبقاعي، نظم الدرر: 3/210، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (تلو).

مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ [الطور: 2] أي: مكتوبٌ مسطَّرٌ، فتوالي كلماتِ الصَّفِّ على استقامتِها يجعلُها سطرًا كسطر الشَّجر، وأمّا الأساطيرُ: فهي الكتابةُ المسطورةُ، ولما كانت أخبارًا مكتوبةً عن الأقدمينَ غابتْ شواهدُها الواقعةُ، وخفيتْ حقائقُها على الحاضرين، وتَشكَّكوا فيها، فلَصِق بمعنى اللَّفظِ معنى الارتيابِ، وقالوا: (الأساطيرُ: الأباطيلُ)، فكأنَّها أشياءُ كُتِبَت من الباطلِ، فصارَ ذلك اسمًا لها، مخصوصًا بها، يقالُ: سطَّر فلانٌ علينا تسطيرًا، إذا جاء بأحاديثَ تشبهُ الباطلَ، فهو يؤلِّفُ ما لا أصلَ له[1].

والأساطيرُ: ما سطَّرهُ الأوَّلونَ، وكتبوهُ من أخبارِ الأممِ وقصصِهم وأحاديثِهم وكذبِهم[2].

3) ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾: جمعُ أوَّلٍ، وهو ضدُّ الآخر، وقيل: أصلهُ (وول)، فقُلِبَتِ الواوُ الأولى همزةً، وأُدغِمَت إحدى الواوين في الأخرى، فقيلَ: أوَّلٌ، ومعناهُ: كونُ الشَّيءِ ابتداءً وسبْقًا في أمرٍ لجميع جنسِه، فيكونُ كلُّ ما يماثلهُ فيه تاليًا لهُ، أي: كائنًا بعدهُ، والأوَّل: يكون كذلك بانضمامِ ثانٍ وثالثٍ إلخ إليه بعدَهُ، والأوَّل: الأسبقُ كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: 96][3]، والأوَّلون: هم بنو آدمَ مِنَ الأممِ السّابقةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إعـلامُ المفلسِ تافهٌ في مضمونِه مـتـعـالٍ في منطوقِهِ

وإذا تُتلى - على هؤلاءِ الذين كفروا - آياتُ كتابِ اللهِ الواضحةُ التي لا ريبَ في دلالتِها على أنَّها من عندِ اللهِ، والَّتي تكشفُ بإعجازِها ما يريدُهُ اللهُ منهم، المرَّة تلوَ المرَّةِ؛ لجّوا، وهوَّنوا أمرَها،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سطر).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/503، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أول)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وول).

وأزروا بالرِّسالةِ وبصاحِبها ﷺ وقالوا قولًا يغرّونَ بهِ أنفسَهم، ومن اتَّبعهم على باطلِهم؛ تمرُّدًا وعنادًا منهم للحقِّ.

وقد قيلَ: إنَّ القائلَ هو النَّضرُ بنُ الحارثِ، ولكن أُسْنِدَ القولُ إلى جماعةِ المشركينَ مِن حيثُ إنَّهم كانوا يؤيِّدونه، ويحكونهُ، ويحاكونهُ، وقالوا: قد سمعنا، ولو نشاءُ؛ لقلنا مثل هذا الَّذي تُلي علينا غير أنّا لا نعتني بهِ، ولا نهتمُّ، فما هو إلّا ما سطَّرهُ الأوَّلونَ، وكتبوهُ من أخبارِ الأممِ! وأرادوا بقولِهم هذا الإيهامَ بأنَّهم ترفَّعوا عن معارضتِه، وأنَّهم لو شاؤوا؛ لنقلوا من أساطيرِ الأوَّلين إلى العربيَّةِ ما يوازي قصصَ القرآنِ، وهذه وقاحةٌ، وقول بلا فعل، وإلّا فما منعَهم أن يشاؤوا معارضةَ من تحدّاهم غير ما مرَّةٍ، وقرَّعهم بالعجزِ، مع تحيُّزهم وتآمرهم في إيجادِ معذرةٍ يعتذرونَ بها عنِ القرآنِ وإعجازِهِ إيّاهم وتحدّيه لهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معاني الواوِ وتوجيهها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾:

الواوُ إمّا عاطِفَةٌ أو استئنافيَّةٌ، وفي كلا الوجهين تُصَوِّرُ عنادَ المشركينَ ومكرَهُم

إمّا عاطفةٌ؛ عطفتْ جملةَ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ على جملةِ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾، والمعنى: واذكرْ نعمتي عندَك، بمكري بمن حاولَ المكرَ بذاتِكَ، واذكر مكرَهُم بآياتِ كتابِ اللهِ عنادًا وغرورًا.

أو استئنافيَّةٌ، فأتت هذهِ الآيةُ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ لتكملَ أخبارَ الكافرين وأحوالهم، ولتبيِّنَ بهتانًا آخر من حجاجِهم وتعنُّتِهم، وهو طعنُهم بآياتِ اللهِ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/44، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/520، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330.

نكتةُ استعمالِ الظَّرف:

مَـوْقـفُ الـكفّارِ عـنـد سَـمـاعِ الآيـاتِ معلومٌ مقطوعٌ بِهِ

استعملَ النَّظمُ ﴿وَإِذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾؛ لأنَّها تستعملُ اسمًا للزَّمن المستقبلِ، وتختصُّ بالجملةِ الفعليَّةِ، ومعناها الشَّرطُ، وتحتاجُ إلى جوابٍ، ومن شرطِها أن يكونَ التَّعليقُ بها على أمرٍ معلومٍ مقطوعٍ بوقوعه، بخلاف (إن)، فإنَّها لا يكونُ التَّعليقُ بها إلّا في مُبهمٍ مشكوكٍ فيه[1]، والحديثُ هنا عن حالةِ الكفّارِ الذين إذا تُتلى عليهم آياتُ اللّهِ؛ كان جوابُهم أمرًا معلومًا مقطوعًا به، وهو الجحودُ والاستكبارُ، ولهذا أتى جوابُ إذا بالماضي ﴿قَالُوا۟﴾؛ للدَّلالة على الوقوع والحصولِ منهم قطعًا، وهذا المعنى المرادُ لا تؤدّيه أيُّ أداةٍ أخرى غير (إذا).

نكتةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ المُضارِع:

حـرصُ الـنَّـبـيِّ على هدايةِ قومِه قابلهُ نكرانُهم وجحودُهم

جاءَ التَّعبيرُ بالمضارع ﴿تُتْلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ دون الماضي (تُليت)؛ لأنَّ صيغةَ المضارع تدلُّ على تجدُّدِ التِّلاوةِ عليهم مرَّةً بعدَ مرَّةٍ وزمنًا بعد زمنٍ، وتصويرِ حالِهم وتجدُّدِها آنًا بعد آنٍ، أيْ: كلَّما تُتلى عليهم آياتُ اللّهِ؛ كان هذا حالَهم من الجحودِ والتعنُّت والافتراء، وأمّا الفعلُ الماضي (تُليَت) فلا يؤدّي هذا المعنى.

براعةُ المناسبةِ:

الـتِّـلاوةُ على الـكـفّـارِ واقـعٌ مـتـجـدِّدٌ، وجـوابُـهـم معلومٌ متبدِّدٌ

ناسبَ استعمالُ ﴿وَإِذَا﴾ استعمالَ الفعلِ المضارعِ ﴿تُتْلَىٰ﴾ بعدَها؛ لأنَّ (إذا) أداةُ شرطٍ وفيها معنى الظَّرفيَّةِ، وهي تستعملُ بحسب أصلِها في كلِّ ما يقطعُ المتكلِّمُ بوقوعِه في المستقبل، وهذا يناسبُهُ المضارعُ، ليؤدّي معنى تكرارِ الفعلِ، وأنَّ هذا حالهم، كلَّما تُليت عليهم آياتُ اللّهِ؛ كان هذا جوابَهم.

(1) ابن نور الدين، مصابيح المعاني في حروف المعاني، ص: 84، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/309.

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ:

جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ ﴿تُتْلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ لأمرين:

رفـــضُ قـبـولِ الـحـقِّ بقطعِ النَّظرِ عن تاليهِ مـــوقـــفٌ جـاثٍّ وسلوكٌ دنيٌّ

الأوَّلُ: إفادةُ العمومِ، وذلك لأنَّ الفعلَ المبنيَّ للمفعولِ في سياقِ الشَّرط يفيدُ العمومَ، قال البقاعيُّ: "من أي تالٍ فُرِض"[1]، فلو أتى بالمبنيِّ للمعلوم لقيَّدَهُ بتالٍ واحد فقط، وهو رسولُ الله ﷺ.

الآخر: صرفُ الحدثِ عمدًا عن مُحدِثِه، فلم يُسندهُ إليه، تركيزًا للانتباه على الحدث ذاته، أي: المفعولُ وهو تلاوةُ الآيات، وحصرَ الوعي فيه، فلا يتوزَّعُ في غيرِه، لعدمِ تعلُّقِ غرض الآيات بشخصِ التّالي.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على نائبِ الفاعلِ:

مَـهـمـا بـلـغَ حـرصُ الـتّـالي؛ فـــإنَّ حـقـيـقـةَ الاســتــكــبــار مـتـغـلـغـلـةٌ في القلوبِ

قدّمتِ الآيةُ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على نائبِ الفاعل ﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛ للاهتمامِ بهم، وأنَّهم المعنيّون بالتِّلاوة عليهم، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّه رغمَ الاهتمامِ بهم والحرصِ على هدايتهم بتلاوةِ الآياتِ عليهم، إلا أنَّهم استكبروا عن سماعِها سماعَ تدبُّرٍ واتِّعاظٍ، وكفروا بها، فيكونُ هذا أبلغَ في إقامةِ الحجَّةِ عليهم، ودلالة على تعنُّتهم وجحودهم.

نكتةُ استعمالِ القيدِ:

تـالي الـقـرآنِ يـتـلـوهُ بـعـزَّةِ الإســلامِ وعـلـوِّ الإيمانِ

استعملتِ الآيةُ قيدَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ للإشارةِ إلى أنَّ تلاوةَ الآيات كانت موجَّهةً للكفّارِ دونَ غيرِهم، فيكونُ هذا أبلغَ في إقامةِ الحجَّةِ عليهم، وللتَّأكيدِ على أنَّ الآياتِ كانت تتلى على مسمعٍ منهم، ومن حالِ قوَّةٍ وعلوٍّ وفخامةٍ لا ضعفٍ وذلٍّ ودونٍ، لأجل أن يتدبَّروها، ويؤمنوا بها، إذ التِّلاوةُ في اللُّغة:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/268.

القراءةُ بصوتٍ، وعندما أتى بحرف الجر ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ كان في ذلك زيادةُ تأكيدٍ على أنَّ التِّلاوةَ كانت بصوتٍ، وسمعها الكفّار، كما أنَّ حرفَ الجرِّ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ دالٌّ على الاستعلاء، ويفيدُ مكانةَ المتلوِّ وعلوَّهُ وشرفَهُ وأنَّهُ حقيقٌ بأن يُسمعَ.

نُكتةُ ذِكْرِ المتلوِّ عليهم بالإضْمارِ لا الإظْهارِ:

معرفةُ المقصودِ تُغني عن ذكرِه

أضمرَ القرآنُ ذكرَ المتلوِّ عليهم - وهم الكفّار - في قوله: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾، ولم يظهرهُ؛ لأنَّ سياقَ الآياتِ وموضوعَها مشعرٌ بتعيينِهم؛ فهي تتحدَّث عن صفاتِ الكفّارِ ومكرِهم وافترائِهم، فعندما ذُكِرَ في هذه الآيةِ ردودُ فعلٍ جاحدةٌ ومستكبرةٌ وخارجةٌ عن سنن الاستقامةِ؛ انصرفَ الذِّهن إليهم، إذ لا يصدرُ إلّا عنهم، فلا حاجةَ إلى إظهارِ ذكرِهم إهانةً لهم وتحقيرًا.

سرُّ التَّعبيرِ بالآياتِ دون الكتابِ:

عبَّرت الآيةُ بقوله: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ دونَ لفظِ (الكتاب)؛ لأمرين:

الاتِّساقُ الدِّلاليُّ يقضي بإيثارِ ذكرِ الآياتِ على الكتابِ

الأوَّلُ: الإشارةُ إلى إعجازِ الآياتِ، فالآيةُ في اللُّغةِ: العلامةُ، ومن معانيها: البرهانُ والمعجزةُ، والسّياقُ سياقُ تحدٍّ.

الآخر: المناسبةُ بينَ لفظِ (الآيات)، وبين فعلِ (تتلى)، فالتِّلاوةُ هي التَّتابعُ، وهذا يُناسِبُ تتابعَ الآياتِ، ويدلُّ على أنَّهُ تُليت عليهم مجموعةُ آياتٍ متتابعة يحصل بها إعجازٌ وتحدٍّ.

نكتةُ الإسنادِ للجميعِ والمرادُ بعضُهم:

ملَّةُ الكفرِ واحدةٌ وإنِ اختلفتْ وسائلُها؛ فهي متَّفقةٌ في غاياتِها

إسنادُ القول للجميعِ في قولهِ: ﴿قَالُواْ﴾ مع أنَّ القائلَ بعضُهم (زعماؤهم) أو واحدٌ منهم؛ وذلك إمّا لرضا الباقينَ بهذا القولِ، أو لأنَّ القائلَ كبيرٌ متَّبعٌ يقودُهم إلى الباطلِ وإلى طريقِ الغوايةِ، فاتَّبعَهُ قائلون كثيرون، أو لكثرةِ من سيصدرُ منهم هذا القولُ كلَّما تُتلى عليهم آياتُ اللّهِ، فلمّا صدرَ القولُ من بعضِهم، فلا مانعَ من أن

يصدرَ أمثالُ هذا القولِ من بقيَّتهم؛ لأنَّهم متَّفقون على الكفرِ والتعنُّت والاستكبار[1]، والعبرةُ بمضمونِ الأقوالِ لا عمَّن صدرت عنهم.

دلالةُ جملةِ جوابِ الشَّرطِ:

طبائعُ الكفّارِ وقلوبُهم وردودُهم واحدةٌ في كلِّ زمانٍ

دلَّت جملةُ جوابِ الشرط ﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا﴾ على وقوعِ هذا القولِ من الكفّارِ قطعًا، وهو إقرارُ السَّماع والفهم، فعندما أتى الفعلُ الماضي ﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا﴾ وهو جوابُ الشَّرط بعد الفعلِ المضارع (وإذا تُتْلى)، وهو فعل الشَّرطِ؛ دلَّ على تحقُّقِ الوقوع، أي: دلَّ على أنَّهم كلَّما تُتلى عليهم آياتُ اللّه؛ سيقعُ منهم هذا القولُ حتمًا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ طبائعَ الكفّارِ وقلوبهم وردودهم واحدةٌ في كلِّ زمانٍ.

فائدةُ استعمالِ أداةِ التَّحقيقِ:

من طبائعِ المعاندين المعاجلةُ بالإجابةِ الجازمةِ دونَ تأمُّلٍ أو تفكُّرٍ

استعملَ النَّظمُ أداةَ ﴿قَدْ﴾ في قولِه: ﴿قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا﴾؛ لتأكيدِ تحقُّقِ سماعِهم للآياتِ، فحرفُ (قد) إذا سبقَ الفعلَ الماضي؛ أفادَ التَّحقيقَ، فقولهم: ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ أفادَ أنَّهم ليسوا بحاجةٍ إلى استمرار سماعِه، وهذا يدلُّ على أنَّهم لا يجيبونَ بالتَّأمُّلِ والتَّفكير والتَّدبُّر فيما يتلى، بل يعاجلون القارئَ، كأنَّهم يطلبونَ أن يسكتَ، ولا يقرأ، قائلين: سمعنا، كما تقولُ لمتكلِّمٍ لا تريدُ منه الاستمرارَ: سمعنا سمعنا، أي: أقْصِر، وكأنَّهم يتأفَّفون، وهذا لشدَّةِ تعنُّتِهم واستكبارِهم واستخفافٍ منهم بالقرآنِ وإعراضٍ عن سماعِه سماعَ متدبِّرٍ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

إباءُ الكافرينَ عن سماعِ التِّلاوةِ انطماسٌ للأسماعِ في الغوايةِ

عبَّرت الآيةُ بصيغةِ الماضي ﴿سَمِعْنَا﴾ للإشارةِ إلى عنادِهم واستهزائِهم؛ إذ إنَّ قولَهم: ﴿سَمِعْنَا﴾ بصيغة الماضي بعد ﴿قَدْ﴾ يفيدُ تأكيدَ تحقُّقِ الحدثِ، وهو أنَّهم سمعوا الآياتِ، وانتهى الأمرُ، ولا إرادة عندهم للسَّماعِ مرَّةً أخرى، بخلافِ ما لو استُعمل الفعلُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/330، والقاسمي، محاسن التأويل: 5/283.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3114.

المضارعُ، فقال: (قد نسمع)، فإنَّهُ يفيدُ توقُّعَ السَّماعِ منهم في المستقبلِ، وفي هذا إشارةٌ إلى استخفافِهم وإعراضِهم عن تدبُّرِ القرآنِ وكِبَرِهم عن قبولِ الحقِّ.

بلاغةُ المجازِ المرسلِ:

ذكـرُ السَّـبـبِ وإرادةُ المسبَّبِ كنايةٌ عن كبرِهم وغرورِهم

أطلقَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ ﴿سَمِعۡنَا﴾، وأراد الفهمَ بدليلِ قولِه بعده: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾؛ إذ لا يمكنُ أن يقولوا مثل ما سمعوا إلّا إذا فهموهُ، فإطلاقُ السَّمعِ وإرادةُ الفهمِ مجازٌ مرسلٌ، والعلاقةُ سببيَّةٌ؛ فالسَّببُ هو السَّمعُ، والمسَبَّبُ هو الفهمُ؛ لأنَّ السَّمعَ طريقٌ إلى الفهمِ، وفي هذا كنايةٌ عن كبرِهم وغرورِهم، وأنَّهُ يكفيهم أن يسمعوا الآياتِ ليفهموها، وفي هذا أيضًا إيجازٌ يشيرُ إلى معاجلتِهم القارئَ، وكأنَّهم يطلبونَ أن يسكتَ، ولا يقرأ؛ لأنَّهم فهموا ما يقولُ.

فنُّ تغايُرِ المذهبينِ:

فـنُّ الـتـغـايـرِ يـبـرزُ الـحـيرةَ والاضـطـرابَ في الأقوالِ

غايرَ قولُ الكافرينَ هنا - في سورةِ الأنفالِ ﴿قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾، وهي سورةٌ مدنيَّةٌ، ورقمُها في النُّزول: (88) - قولَهم في سورةِ ص: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَاقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۖ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص: 7 - 8]، وهي سورةٌ مكيَّةٌ، ورقمُها في النُّزول: (38)، وقد أنكرَ فيها المشركونَ سماعَهم للقرآنِ إنكارًا منهم لغرابةِ أسلوبِه وما بهرَهُم من فصاحتِه، ويلزمُ هذا الكلامَ إقرارُهم بالعجزِ عن محاكاتِه.

وبلاغةُ فنِّ التَّغايرِ أنَّ القولين وقعا في زمنينِ مختلفينِ ووقتينِ متباينينِ، ولو كان القولانِ في وقتٍ واحدٍ؛ لكانَ ذلك تناقضًا وهو عيبٌ، ولم يُعدَّ في المحاسن، ولذلك سمّي تغايرًا لا تناقضًا في كتابِ اللّه تعالى[1].

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 9/209.

فنُّ الاحتباكِ:

خالفَ النَّظمُ بين شرط ﴿لَوْ﴾ وجوابِها؛ إذ جعل شرطَها مضارعًا والجزاء ماضيًا، أي: عدلَ عن الفعلِ الماضي (شئنا) إلى المضارعِ ﴿نَشَآءُ﴾، فالتَّقديرُ: لو شِئْنا؛ لقلْنا، ويرى ابن عاشور أنَّهُ لا يبعدُ أن يكونَ احتباكًا قائمًا مقامَ شرطين وجزاءين، فإحدى الجملتينِ مستقبلةٌ والأخرى ماضيةٌ، فالتَّقديرُ لو نشاءُ أن نقولَ؛ نقولُ، ولو شئنا القولَ في الماضي؛ لقلْنا فيهِ، فذلك أوعبُ للأزمانِ، فهُم لمّا قالوا: (لو نشاءُ؛ لقلنا مثل هذا)؛ ادَّعوا القدرةَ على قولِ مثلهِ في الماضي وفي المستقبلِ إغراقًا في النَّفاجة والوقاحةِ[1].

إنَّـمـا تُـعـرَفُ وقاحةُ الكذّابِ بـوضـوحِ كـذبِهِ وجرأةِ زعْمِه

نكتةُ انتقاءِ الألفاظِ:

عبَّر القرآنُ الكريمُ بلفظِ ﴿لَقُلْنَا﴾ في قولهِ تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، ولم يقل: (لتلونا)؛ ليُعلمَ الفرقُ في التَّقابلِ السياقي بين المقولِ والمتلوِّ؛ إذ إنَّ بين اللَّفظتينِ توافقًا في بعضِ الوجوهِ، فكلاهما كلامٌ يعبِّرُ عمّا في النَّفس، ولكنَّ السّياق هو الَّذي يحدِّدُ اللَّفظةَ المناسبةَ لمكانِ ورودِها، فلفظةُ ﴿تُتْلَىٰ﴾ دلَّت على التَّتابُعِ، فالتِّلاوةُ لا تكونُ في الكلمةِ الواحدة، بخلافِ القولِ فلا يقتضي المتابعةَ؛ إذ يمكنُ أن يكونَ بكلمةٍ واحدةٍ، فلا تقولُ: تلا اسمَهُ، وتقول: قالَ اسمَهُ.

التَّقابلُ السّياقيُّ بين المقولِ والمتلوِّ يُعْلمُ بالسِّماتِ والـــدِّلالاتِ المختلفةِ لكلٍّ منها

كما أنَّ التِّلاوةَ هي قراءةٌ على وجهٍ مخصوصٍ، وتعني: القراءةَ المتتابعةَ بتغنٍّ، وتعني: المتابعةَ بالعلمِ والعملِ، وهذه المعاني هي المناسبةُ للقرآنِ الكريمِ، فلذلكَ عبَّرَ بـ ﴿تُتْلَىٰ﴾.

أمّا القولُ فإضافةً إلى السِّماتِ السّابقةِ من أنَّهُ لا يقتضي المتابعةَ، ويمكنُ أن يكونَ بكلمةٍ واحدةٍ، فإنَّهُ لا يعودُ في الأغلبِ إلى مصدرٍ معيَّنٍ، وغالبًا لا يدلُّ في أصلهِ على اليقينِ، أي: يكونُ فيما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/329.

يحتاجُ إلى تثبُّتٍ، ومنه قولهُ تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحاقة: 44]، ولذلك ناسبَ أن يكونَ التَّعبيرُ عن قولهِم الَّذي هو كذبٌ وافتراءٌ وادِّعاءٌ بقدرتِهم على أن يفعلوا ما لم يفعلوهُ، إبهامًا على النّاس وإيهامًا، ناسبَ أن يكونَ لفظ ﴿لَقُلْنَا﴾، وفي هذا دليلٌ على أنَّهم نطقوا بما في نفوسِهم من انهزام واستسلام نفسيٍّ أمامَ عظمةِ القرآنِ، كما أنَّ لفظَ ﴿لَقُلْنَا﴾ يُناسبُ اعتقادَهم بأنَّ القرآنَ مجرَّدُ أقوالٍ كأساطيرِ الأوَّلينَ.

بلاغةُ وصفِ المفعولِ المطلقِ المحذوفِ:

أبـث ألسنتُهُم إلّا أن تفضحَ ما في نفوسِهم من الاستسلامِ النَّفسيِّ للقرآنِ

المفعولُ المطلقُ المحذوفُ هو (قولًا)، و﴿مِثْلَ﴾ وصْفٌ له، والتَّقدير: (لو نشاءُ لقلنا قولًا مثلَ هذا)، وهذا دليلٌ على أنَّ قدرتَهم في الادِّعاءِ الكاذبِ لا تتجاوزُ إلا أن تكونَ مثل القرآن، ولم يجرؤوا أن يقولوا: (لقلنا خيرًا منه)، وفيهِ كشفٌ لما يدورُ في نفوسِهم من الاستسلامِ النَّفسي لهذا القرآنِ، كيف لا؟ وأنتَ ترى كيفَ أنَّهم بعد قولهِم: (لقلنا قولا مثل هذا) يصفونَ القرآنَ بعبارةٍ يصعدُ منها دخانُ الانهزامِ النَّفسي عندَهُم، فهم يرمونَ القرآنَ بما يسترونَ بهِ مقامَهم بفعالِهم؛ إذ أساطيرُ الأوَّلين ما أتى بها إلّا رؤساءُ الكفرِ في مكَّةَ، وهم لا يحسنونَ سواها، فرموا القرآنَ بما يستصغرونَ بهِ أنفسَهم من حيثُ لا يشعرونَ، وهذا شأنُ المتكبِّر البليدِ، يقع في بلادةِ شعورِه، وشعورِ نقصِه وعجزِه.

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للقريبِ:

الإشارةُ بالقريبِ للتَّنبيهِ على تسفُّلِهم واستغراقِهم في الكبرِ والغرورِ

أخبرَ اللّهُ عن حالِ المشركينَ ومقالتِهم ردًّا على سماعِ آياتِ اللّهِ، ووصفَ لنا تعبيرَهُم، وهُم يتحدَّثونَ عن آياتِ القرآنِ من خلالِ استخدامِهم إحدى أدواتِ التَّعريفِ، وهي اسمُ الإشارةِ للقريب الذي أرادوا من خلالهِ الاستخفافَ والاستهزاءَ والتَّقليلَ من عظمةِ كلامِ اللّهِ سبحانه، ممّا يدلُّ على مدى استكبارِهم وإصرارِهم

على الباطلِ وعدمِ سماعِ الحقِّ، وهو دأبُهم وعادتُهم مع كلِّ الأنبياء والرُّسلِ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: 41]، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل: 68]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: 25]، وحتَّى التَّعبير بهذا دونَ (هذه) أو دون مثلِها فيه دلالةٌ على إهانتِهم لآياتِ اللهِ وازدرائِهم بمقامِ الرِّسالةِ.

بلاغةُ القصْرِ:

القصْرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هو قصرٌ بالنَّفي والاستثناءِ، والغرضُ البلاغيُّ منه حصرُ كونِ الآياتِ ليست إلّا أساطيرَ الأوَّلين، ونفيُ أن تكونَ غيرَ ذلك، وجاء بـ (إن) مع (إلا) الَّتي تفيدُ توكيدَ التَّوكيدِ، وهذا الموقفُ يبيِّن مدى العنادِ والتَّكبُّرِ والجحودِ الَّذي وصلَ إليه المشركونَ في إنكارِ رسالةِ النَّبيِّ ﷺ يقولُ أبو زهرةَ: "أفبعد هذا التَّحدّي الشّامخِ والسُّكوتِ الخانعِ والعجزِ الخاضعِ يقول قائلُهم: لو شئنا؛ لقلنا مثل هذا، تلك غطرسةٌ كاذبةٌ، ونفخة جوفاء، ويردفونَ كذبَهم بكذبةٍ أخرى، فيقولون: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾"[1].

استعمالُهم للقصرِ يبيِّنُ مدى العنادِ والتَّكبُّرِ الذي وصلوا إليهِ في إنكارِ الرِّسالة

نكتةُ تَكرارِ اسمِ الإشارةِ:

سبقَ أن استخدمَ المشركونَ اسمَ الإشارةِ للقريبِ، وهم يتحدَّثون عن آياتِ القرآنِ، استخفافًا واستهزاءً، يقولُ سبحانه: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾، ولقد أعادوا استخدامَ هذا الاسمِ، وهم في سياقِ الاستمرارِ في التَّكبُّرِ والإعراضِ والاستخفافِ، بادِّعائِهم أنَّ القرآنَ ليس إلّا أساطيرَ الأوَّلينَ، فقالوا كما حكى القرآنُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ولم يقولوا: (إن هو).

تَكرارُ الألفاظِ تابعٌ للرّاسخِ من معاني الاستخفافِ والتَّقليلِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3114.

وفي هذه الإعادةِ دلالةُ تأكيدهم للغرض ذاته، وهو الاسخفافُ والتَّكبرُ.

بلاغةُ النَّظمِ في التَّنبيهِ على غايات الخصم:

وصْفُ المشركين لكلامِ اللهِ المعجزِ بأنَّهُ أساطيرُ الأوَّلينَ: هو تشبيهٌ سلبيٌّ لصرفِ النّاسِ عن القرآنِ، وقد ذكرَهُ القرآنُ ليشيرَ إلى غايةِ المكابرةِ ونهايةِ العنادِ الَّتي كانوا عليها، كيف لا؟ ولو استطاعوا شيئًا من ذلك، فما الَّذي كان يمنعُهم من المشيئةِ، وقد تُحدّوا عشرَ سنينَ، وقُرِّعوا على العجزِ، وذاقوا من ذلكَ الأمرَّينِ، ثمَّ قورعوا بالسَّيفِ، فلم يعارضوا بما سواهُ مع أنفتِهم وفرطِ استنكافِهم أن يغلبوا لاسيَّما في بابِ البيانِ[1]، وهذا من عجيبِ بهتانِهم، ومع هذا كلِّه يعتذرونَ بأنَّ ما في القرآنِ أساطيرُ الأوَّلينَ، وأنَّهم قادرونَ على الإتيانِ"[2].

وَصـفُ الـقـرآنِ بأساطيرِ الأوَّلينَ تشبيهٌ سلبيٌّ لصرفِ النّاسِ عنهُ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التِّلاوةُ والقراءةُ:

التِّلاوةُ والقراءةُ مُتقاربتانِ في المعنى إلّا أنَّ بينهما ملامحَ دلاليَّةً فارقةً منها:

التِّلاوةُ لا تكونُ إلّا بالتَّتابُعِ وبصوتٍ بينَما القراءةُ لا يُشترطُ فيها التَّتابعُ والصَّوتُ

الأوَّلُ: أصلُ التِّلاوةِ في اللُّغةِ مِنَ الاتِّباع، بينما أصلُ القراءةِ هو جمعُ الشَّيءِ، وضمُّ بعضِه إلى بعضٍ، فقراءةُ الكلامِ تعني: ضَمَّ حروفِه إلى بعضِها والتَّلفُّظَ بها مجموعةً.

الثّاني: القراءةُ أعمُّ من التِّلاوةِ، فالتِّلاوةُ هي قراءةٌ على وجهٍ مخصوصٍ، وتعني: القراءةَ المتتابعةَ بتغنٍّ، وتعني: المتابعةَ بالعلمِ والعملِ، وأمّا القراءةُ؛ فلا تقتضي المتابعةَ، يقال: قرأْتُ الرِّسالةَ، ولا يقالُ: تلوْتُ الرِّسالةَ، فالقراءةُ عامَّةٌ والتِّلاوةُ خاصَّةٌ، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/19.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/329.

الثّالثُ: التِّلاوةُ لا تكونُ في الكلمةِ الواحدةِ، والقراءةُ تكونُ فيها، تقولُ: قرأ فلانٌ اسمَهُ، ولا تقول: تلا اسمَهُ؛ لأنَّ أصلَ التِّلاوةِ: الاتِّباعُ، فإذا لم تكنِ الكلمةُ تتبع أختَها لم تُستَعملْ فيها التِّلاوةُ، وتُستَعمل فيها القراءةُ.

الرّابع: (تلا) تُستعملُ للقراءةِ من مكتوبٍ بصوتٍ، ويتسامح فيها، فتكونُ من غيرِ مكتوبٍ لكن بصوتٍ، و(قرأ) تُستعمل للقراءة من مكتوبٍ ومن غير مكتوبٍ، بصوتٍ وبغير صوتٍ، فإذا عُدّيا بـ (على) فهما بصوتٍ[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 27، والراغب، المفردات، ص: 75، والنزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلمات القرآنية، ص: 27، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 159 - 160.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»